

الإتصال الأنتلجنسي (النخبوي) ورهاناته في صناعة التغيير

د. قواسم بن عيسى

أستاذ محاضر " أ "

جامعة د. مولاي الطاهر بسعيدة - الجزائر

gouacemb84@yahoo.fr

ملخص

يتملك الإتصال قدرة هائلة على إدارة التغيير وصناعته، فهو أحد قوى التغيير لتغيير القوى، باستخدام الإقناع القائم على الحجة والبرهان، وهو البديل الأمثل عن التغيير الفج العنيف الذي يمكن لنتائجه أن تكون كارثية ومدمرة، إنه سلوك هادئ لتسود في المجتمعات قوة المنطق بدل منطق القوة، وإذا كان العوام يراهنون على هذه القوة التغييرية للإتصال في تحسين حياتهم وحيوة ذويهم ونقلها نحو الأفضل، فإن القيادات والنخب تراهن أكثر من غيرها على الإتصال في وضع الاستراتيجيات الهادفة إلى التغيير البناء الذي يحقق طموحات وغايات النخب والجماعات التي يتولون قيادتها ضمن ما اصطلح عليه بالإتصال القيادي أو النخبوي.

لقد عرفت الأمم والحضارات المتعاقبة هذا النوع من الإتصال منذ بداية الخليقة بهدف إحداث التغيير، فقد مارس الأنبياء والرسول باعتبارهم نخبه وصفوة الخلق الإتصال النخبوي من أجل تغيير العقائد الفاسدة والسلوكات المنحرفة، كما استخدمه الملوك والأمراء والولاة في منظومة الحكم بهدف تحسين أوضاع الرعية، وأدرك العلماء والانتلجنسيا أهمية واستراتيجية هذا النوع من الإتصال فمارسوه بكثافة عبر التاريخ الإنساني ولا يزالون يمارسونه من أجل تحقيق ذات الهدف وهو "التغيير"، ضمن ما اصطلح على تسميته في هذا البحث بالإتصال الانتلجنسي. وتعتبر هذه الورقة البحثية محاولة للتعرف على ماهية هذا النوع من الإتصال ورهاناته في هندسة التغيير البناء.

الكلمات المفتاحية: النخبة، الانتلجنسيا، الإتصال الانتلجنسي، الإتصال النخبوي، صناعة التغيير

Abstract

The communication has an enormous capacity to change making, it is one of powers of change to change powers, by using persuasion based on argument and proof, it is the perfect alternative of violent change which can cause catastrophic and destructive results, it is a quiet behavior for prevailing in societies the power of logic instead of the logic of power; if ordinary persons bet on this changeable power of communication in order to improve their lives, and lives of their relatives, and change

them for the better, so leaders and elites are betting more than others on communication in their strategies aimed to constructive change which realize ambitions and goals of elites and their followers, under what we call it "elitist communication".

The successive nations and civilizations knew this type of communication since the beginning of creation for change making; prophets as an elite were doing this kind of communication for changing bad creeds and deviated behaviors, kings, princes and governors also were doing it in their governance system in order to improve the situations of peoples, scientists and intelligentsia also knew the importance of this type of communication across the human history for the same purpose "the change", under what we can call it in this article "intelligentsia communication".

This research paper is considered as an attempt to identify the reality of this kind of communication and determine its bets in engineering of constructive change.

Key words:

Elite – Intelligentsia - Intelligentsia communication – Elitist communication – Change making.

تقديم

تعتبر ظاهرة الإنتقاء أو الإصطفاء حتمية وجودية وسنة كونية لا يقتصر وجودها على بني البشر فحسب، بل تمتد لتشمل عالم الطبيعة الذي يحكمه القانون الطبيعي "البقاء للأقوى"، فالقوة هي المعيار الذي يحكم عملية الإصطفاء في عالم الطبيعة، وهو ما أدى بعلماء الطبيعة وفي مقدمتهم العالم الإنجليزي "تشارلز داروين" إلى تأسيس نظرية "الإنتقاء الطبيعي"، وخالصة هذه النظرية أن المخلوقات الأكثر تأقلماً مع البيئة هي التي عاشت على حساب المخلوقات الأضعف منها، ورغم الإنتقادات والمؤاخذات الكثيرة التي وجهت ولا تزال توجه إلى هذه النظرية إلا أنها تبقى من بين أشهر النظريات في تفسير عملية الإنتقاء والإصطفاء.

وإذا كان لعلماء الطبيعة إسهامهم في تفسير ظاهرة الإنتقاء، فإن علماء الدين بدورهم يقدمون مقارباتهم لتحليل هذه الظاهرة ضمن ما يعرف بنظرية "الإصطفاء الإلهي"، وتقوم فلسفة هذه النظرية على فكرة أن الله يصطفي من مخلوقاته ما يشاء، ليس من البشر فحسب، بل حتى من الأزمنة مثل شهر رمضان وليلة القدر، والأمكنة مثل مكة المكرمة والمدينة المنورة، كما يصطفي من عباده من يشاء ليتولوا مهمة قيادة الأمم، والمراد بهم هنا الأنبياء والمرسلون ومن اقتفى أثرهم، وقد وردت في القرآن الكريم آيات كثيرة تدل على هذا الإصطفاء، منها قوله تعالى "الله يصطفي من الملائكة رسلاً ومن

الناس" (1)، وقوله عن طالوت "إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة في العلم والجسم" (2)، وإذا كان القانون الذي يحكم عملية الإنتقاء في نظر علماء الطبيعة هو "البقاء للأقوى"، فإن هذا القانون في نظر علماء الدين هو "البقاء للأصلح"، وإذا كانت النواميس الكونية الطبيعية تقتضي زوال الضعفاء واختفاؤهم من الطبيعة، فإن السنن الإلهية تقتضي زوال الفاسدين والمفسدين بحلول العقاب الإلهي عليهم، كما قال تعالى "فكلا اخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا" (3).

لقد كانت فلسفة الإصطفاء منذ بداية الخليقة ولا تزال إلى يومنا هذا هي أساس بقاء الكائنات وتطور المجتمعات، فالمؤسسات المجتمعية المختلفة مهما كان طابعها عسكريا، سياسيا، دبلوماسيا، اقتصاديا، اجتماعيا، ثقافيا...، تتركز في وجودها وتطورها على حسن اختيار قياداتها وموظفيها والمتعاملين معها، فالمؤسسة العسكرية مثلا تقوم بعملية الإنتقاء الطبي لمن يريدون الإنضمام إلى صفوفها وتختارهم بعناية فائقة من حيث اللياقة البدنية والبنية الجسدية والسلامة من الأمراض، والأمر نفسه بالنسبة لبقية المؤسسات المجتمعية المختلفة التي تنظم مسابقات توظيف لاختيار أحسن الموظفين، والمؤسسات التعليمية ترصد جوائز تشجيعية لانتقاء أفضل طلابها، والمؤسسات السياسية المعاصرة تستمد قوتها السياسية في الأنظمة الديمقراطية من السلوك الإنتخابي للناخبين، وتقوم فلسفة هذا الإصطفاء المجتمعي (societalselection) على قانون "البقاء للأكفء والأجدر".

إن ظاهرة الإنتقاء هي التي تمهد الطريق لصناعة النخب في المجتمعات، فكلما كان الإنتقاء مبنيا على أسس عقلية منطقية تعطي الأولوية للأكفء والأجدر والأكثر استحقاقا كلما تحققت الجودة في إنتاج النخب، هذه الأخيرة التي تقع على عاتقها مسؤولية قيادة المجتمعات نحو الرقي والتطور، وتأتي على رأس هذه النخب النخبة الفكرية والثقافية التي تساهم برأسمالها الرمزي في إنتاج مختلف أنواع النخب المجتمعية الأخرى وبالتالي في صناعة التغيير نحو الأفضل.

ومن أجل تحقيق هذا الهدف الأسمى وهو القيادة نحو الأفضل، يستخدم المفكرون والمثقفون أو ما يعرف بـ "الانتلجنسيا" مختلف أساليب وتقنيات الإتصال الذي يمكن تسميته الإتصال الانتلجنسي أو النخبوي "elitistcommunication"، باعتباره أحد أهم السلوكيات النخبوية التي تمارسها الانتلجنسيا في حراكها الخلاق والمبدع، وتعتبر هذه الورقة البحثية محاولة لشرح ماهية هذا النوع من الإتصال، ومعرفة دوره الإستراتيجي الفعال في تطوير الأمم، ورهاناته في صناعة التغيير نحو الأفضل لدى كل الكيانات سواء كانوا أفرادا، جماعات، مؤسسات أو حكومات ودولا.

(1) القرآن الكريم، سورة الحج، الآية 75.

(2) سورة البقرة، الآية 247.

(3) سورة العنكبوت، الآية 40.

مفهوم النخبة

تدل كلمة النخبة أو الصفوة في اللغة العربية على معنى الخلاصة، فيقال صفوة الشيء أي خلاصته وخياره، ويقال اصطفاه أي اختاره، والصفوة من الماء ونحوه تعني القليل، وانتخب الشيء اختاره، والنخبة ما اختاره منه، ونخبة القوم خيارهم، والانتخاب هو الإختيار والانتقاء ومنه النخبة وهم جماعة تختار من الرجال⁽¹⁾.

ويقال نخب (بفتح الخاء) ينخب نخبا الشيء نزعاً وأخذ نخبته، ونخب (بكسر الخاء) ينخب نخبا الرجل كان منزوع الفؤاد جباناً فهو نخب⁽²⁾.

استخدمت كلمة نخبة "Elite" في القرن 17 لوصف السلع ذات النوعية الممتازة، وما لبث هذا الاستخدام أن اتسع للإشارة إلى الجماعات الإجتماعية العليا كبعض الوحدات العسكرية أو المراتب العليا من النبالة، وطبقاً لقاموس أوكسفورد فإن أقدم استخدام معروف في اللغة الإنجليزية لكلمة نخبة كان في سنة 1823، حينما كانت تنطبق بالفعل على الجماعات الإجتماعية، بيد أن المصطلح لم يستخدم استخداماً واسعاً في الكتابات الإجتماعية والسياسية الأوربية بوجه عام إلا في أواخر القرن 19 وفي ثلاثينات القرن 20 في بريطانيا وأمريكا بوجه خاص حينما انتشر المصطلح وساد استخدامه في النظريات السوسولوجية للصفوة، وعلى الأخص تلك التي تضمنتها كتابات "باريتو Pareto"⁽¹⁾.

تعود البدايات الحقيقية لمفهوم النخبة إلى أعمال الفيلسوف اليوناني "افلاطون" عندما تكلم عن ضرورة أن يحكم المجتمع جماعة من الأفراد الناهجين، كما تعود كذلك إلى المذهب الذي تقوم عليه طائفة البراهمة، وهو مذهب ساد في الهند في فترة مبكرة من تاريخها، فضلاً عن ذلك وجدت مذاهب ومعتقدات دينية عديدة عبرت بشكل أو بآخر عن فكرة النخبة وكان لها تأثير بعيد في النظريات الإجتماعية، غير أن التصور الإجتماعي والسياسي الحديث للنخبة يرجع إلى دفاع سان سيمون (Saint simon) عن حكم العلماء ورجال الصناعة، إلا أن النخبة اتخذت معاني ومضامين متنوعة، وبالذات عندما أقر هذا الأخير مسألة الفروق الطبقيّة، وأكد التفاوت بين الفقراء والأغنياء مما حدا أتباعه فيما بعد إلى دفع الفكرة نحو الإشتراكية⁽²⁾.

(1) ثروت مكّي، النخبة السياسية والتغيير الإجتماعي، عالم الكتب، القاهرة، ط1، 2005، ص 20.

(2) علي بن هادية وآخرون، القاموس الجديد للطلاب، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1991، ط7، ص 1208.

(1) بوتومور، تر: مجّد الجوهري وآخرين، الصفوة والمجتمع، دراسة في علم الإجتماع السياسي، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، 1988، ص 25.

(2) مجّد بن صنيّتان، النخب السعودية، دراسة في التحولات والإخفاقات، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2005، ط2، ص 23.

كما اشترك موسكا وكارل منهايم في انطباعهما الجيد عن الطبقة المثقفة، بحيث تأخذ حسب رأيهما في اعتبارها مصالح المجتمع بصفة عامة، حتى وإن أدى الأمر إلى تخليها عن مصالحها الخاصة لأنها تفضل التنازل عن منافعها الآنية تحاشيا لشور المستقبل، فالطبقة المثقفة هي التي تستطيع التحرك باستقلال لمزيد من المصالح الإجتماعية العامة⁽³⁾.

وقد استخدم "ميكيافيلي" مفهوم النخبة محددًا عدد أولئك الذين يتولون المراكز القيادية في مجتمع ما بما يزيد عن 50 شخصا، ويرى "كارل دويتش" أن النخبة هي الفئة القليلة من الأفراد التي لا تزيد عن 5% من السكان في مجتمع ما وتتوافر لديها قيمة واحدة على الأقل من القيم الأساسية أكثر من بقية السكان⁽⁴⁾.

اتجاهات دراسات النخبة

1- الإتجاه التنظيمي:

أهم رواد هذا الإتجاه موسكا وروبرت ميشلر، ويرجع أصحابه قوة النخبة إلى العنصر التنظيمي، ويؤكد موسكا أن النخبة تمتلك مقاليد القوة بفضل قدراتها التنظيمية، فرغم أنه صحيح أن موقع النخبة نتيجة لحيازة أعضائها لميزة معينة تحظى بتقدير في المجتمع، هذه الميزة قد تكون ثروة أو اهتماما بالمصلحة العامة أو مكانة دينية...، إلا أن سيطرة النخبة رهن بقدرتها على تكوين جبهة متماسكة في مواجهة القوى الإجتماعية الأخرى، وأشار موسكا إلى أهمية ما تتمتع به الجماعة صغيرة العدد من قدرات تنظيمية وقنوات اتصال تيسر تدفق المعلومات بسرعة، وتعزز قدرتها على التماسك والإستجابة الفورية للظروف المتغيرة، والتحكم في القوى الإجتماعية الأساسية النشيطة في المجتمع⁽¹⁾.

2- الإتجاه النفسي:

يعد باريتو صاحب الإقتراب النفسي لدراسة النخبة، حيث حلل التاريخ الإنساني على أنه صراع النخب، وفي ضوء تفسيره لسيطرة النخبة وتغييرها استخدم مفهوم الترسبات الذي لا يعدو أن يكون انعكاسا للميول الفطرية الإنسانية، وقسم الرواسب إلى مجموعتين:

- المجموعة الأولى: تضم رواسب تعكس النزوع إلى التوليف.

⁽³⁾ نفس المرجع، ص 122.

⁽⁴⁾ ثروت مكلي، مرجع سابق، ص 27.

⁽¹⁾ ثروت مكلي، مرجع سابق، ص 30.

- المجموعة الثانية: تضم رواسب تعكس النزوع إلى تعزيز وضع حاملها يتم الوصول إليه⁽²⁾.

3- الاتجاه الإقتصادي:

أهم رواده "بيرنهام" الذي يرى بأن السياسة دائما هي مسألة صراع بين الجماعات الإجتماعية في سبيل الوصول إلى القمة والمكانة، وأنه في كل المجتمعات هناك فئة صغيرة تتولى هي عملية صنع القرار ورسم السياسات الأساسية في المجتمع، ويتفق مع النظرية الماركسية في فهمه وتفسيره للأسس التي تستند إليها النخبة⁽³⁾.

والنخبة كلمة تدل على الشيء الأفضل الذي يستأهل أن يقع عليه الخيار، فهي الفئات الأكثر ثقافة في المجتمع وبالتالي الأكثر قدرة على إدارة هذا المجتمع وعلى خدمته، وهكذا تشير النخبة بمعناها اللغوي الواسع إلى أي طائفة تتوافر فيها صفات ذات قيمة كالقدرة الفكرية والهيبة والسلطة والنفوذ الواسع، وقد تكون هذه الفئة منتخبة بواسطة الجماعة أو الطبيعة أو بالاعتراف العام المبني على معايير الجدارة والإستحقاق⁽⁴⁾.

وبهذا فقد أعطيت تعريفات كثيرة للنخبة على أساس أنها الاقلية داخل أي تجمع اجتماعي مثل المجتمع والدولة والحزب السياسي، أو قلة أو جماعة أو فئة تمارس نفوذا متفوقا داخل المجتمع ولها وضع رفيع في المجتمع وتمارس السلطة والتأثير السياسي، وتدخل في صراعات في سبيل القيادة، وتضم أعضاء الحكومة والإدارة العليا والقادة العسكريين، كما تضم في بعض الحالات العائلات أو أصحاب المؤسسات الإقتصادية القوية، وقد تشمل النخب المضادة والمؤلفة أساسا من الأحزاب السياسية المعارضة والنقابات ورجال الفكر ورجال الأعمال⁽¹⁾.

مفهوم الانتلجنسيا

يرى "روبرت بريم" أن " المثقف " كمصطلح قد استخدم بصفة أساسية من قبل أولئك الذين كانوا ينادون بالحقوق السياسية، وقد تخلق هذا الإسم من قبل أدباء فرنسا الذين قادوا الحركة التي استهدفت تحرير الوظائف الأدبية والكتابية، وهي الحركة التي كانت ترمي أساسا إلى الحد من سيادة النزعة العسكرية.

(2) نفس المرجع، ص 33.

(3) نفس المرجع، ص 35.

(4) أسامة معقاني، النخبة الحاكمة ومسار التحول الديمقراطي، دراسة حالة تونس، (2010) رسالة ماجستير في العلوم السياسية والعلاقات

الدولية، جامعة الجزائر، 2011، ص 56.

(1) أسامة معقاني، مرجع سابق، ص 57.

أما اصطلاح الانتلجنسيا (intelligentsia) فقد استخدم من قبل الأوربيين الشرقيين، وهو اصطلاح يعني المفكرين الذين يهتمون أساسا بنقد السلطة القائمة، ويلعبون أدوارا رئيسة في الحركات الثورية⁽²⁾.

ويميز بوتومور بين المثقفين (Intellectuals) والانتلجنسيا (Intelligentsia)، ويعزو هذا التفريق إلى أن مصطلح الانتلجنسيا استخدم لأول مرة في روسيا، وقصد به آنذاك أولئك الذين تلقوا تعليما جامعا يؤهلهم للإشتغال بالمهن الفنية العليا، وقد اتسع استخدامه وامتد مدلوله إلى أولئك الذين ينخرطون في مهن غير يدوية، أما المثقفون فهم أولئك الذين يسهمون مباشرة في ابتكار الأفكار أو نقدها، وتضم هذه الفئة المؤلفين والعلماء والفلاسفة والمفكرين والمتخصصين في النظريات الاجتماعية والمحللين السياسيين.

فالمثقف كان امتدادا طبيعيا للفيلسوف في القرن 18 وبداية القرن 19 وذلك على المستوى المذهبي والايديولوجي، فبروز المثقف ارتبط بالصراع الفكري والسياسي، حتى أنه أحيانا يقصد بالمثقفين الفئة النشيطة والمعارضة للسلطة، فالمثقف هو الفرد الذي يلتزم بإثارة القضايا التي تتعارض مع أي ضغط سياسي، ويشترط فيه أن يكون مالكا لرصيد معرفي مهم⁽³⁾.

أما بالنسبة للأصول الإجتماعية للمثقفين، فقد استطاع التعليم أن يساعد ذوي المواهب من الطبقات الإجتماعية الدنيا على الحصول على مراكز اجتماعية مهمة إلى درجة أنهم بدورهم أصبحوا نخبة، وكدليل على ولوج المثقفين دائرة النخبة السياسية، فإنه اتضح أن أكثر من نصف أعضاء مجلس النواب الفرنسي منذ عام 1871 حتى عام 1958 من المنتخبين والبالغ عددهم 600 نائب هم من المثقفين بالمعنى الواسع، ويضمون فئات متعددة مثل الكتاب وأساتذة الجامعات والمحامين والصحفيين والعلماء والمهندسين والمدرسين.

فالمثقفون حسب ماكس فيبر هم مجموعة من الأشخاص الذين تمكنهم قدراتهم ومواهبهم الخاصة من النفاذ إلى منجزات ذات قيمة ثقافية.

أما "روبرت ميشال" فيرى أن المثقفين هم أولئك الأشخاص الذين يمتلكون المعرفة، وعلى أساس هذه المعرفة الموضوعية وتأملاتهم الذاتية يصوغون أحكامهم على الواقع دون أن يستخدموا هذه الأحكام مباشرة أو بالضرورة من خبراتهم الحسية، في حين يرى "تالكوتبارسوتر" أن المثقف هو المتخصص في أمور الثقافة ويضع حساباتها فوق الحسابات الإجتماعية اليومية المعتادة.

⁽²⁾ محمد بن صنيان، مرجع سابق، ص 121.

⁽³⁾ نفس المرجع، ص 122.

أما "ادوارد شيلز" فيشير إلى أن المثقفين هم ذلك القطاع من بين المتعلمين الذين لهم طموحات سياسية إما مباشرة بالسعي إلى صياغة ضمير مجتمعهم والتأثير في السلطة السياسية وفي اتخاذ القرارات الكبرى.

وحسب "جمال الدين الافغاني" فإن المثقفين هم أولئك المتعلمون الذين يتمتعون بالروح الفلسفية النقدية ويستخدمونها في مراجعة ماضيهم والتأمل في حاضرهم لكي يفسروا النبل الإنساني ويضيئوا الطريق لأبناء أمتهم ويرشدونهم سواء السبيل.

وتختلف الإجهادات حول ماهية المثقف وأنماط تعاملاته، فالبعض يرى وجوب انخراط المثقف في حركة اجتماعية منظمة، أو أن يتولى القيادة الفكرية في إحدى مجالات الحياة العامة، والبعض الآخر يرى أن المثقف لا بد أن يكون بمثابة "فيلسوف" فتكون له مواقف أيديولوجية واضحة، إلا أن البعض الآخر يرى أن يقتصر دور المثقف على إنتاج الأفكار المجردة المفصلة عن الشؤون الثقافية العامة ولا يرى ضرورة لكل ما ذكر آنفاً، فالعادة في الأحاديث الجارية عن المثقفين لا تشترط فيهم هذه الشروط، وإن كانت تعطي لهم مكانة اجتماعية خاصة، ويرى أيضاً أن إثراء أوساط المثقفين بالقيادة الفكرية والفلاسفة أمر يتغير حسب الظروف⁽¹⁾.

سلطة الانتلجنسيا:

سلطة النخبة المثقفة ليست مادية أو اقتصادية بل هي سلطة رمزية، أي سلطة الكلام والكتابة مقابل سلطة السيف والمال، ولكنها سلطة في النهاية تمارس على النفوس والعقول بواسطة المنتوجات الرمزية المتمثلة في الأفكار والمعارف أو في العقائد والطقوس، أو في الشهادات والألقاب.

والسلطة الرمزية تمارس على هذا النحو منذ زمن العراف القديم إلى زمن المثقف الحديث مروراً بالكهنة والقساوسة فضلاً عن الفقهاء الذين برزوا مجدداً على المسرح، بعد أن همش دورهم لصالح المثقف الحديث ذي الجذر الليبرالي أو القومي أو الماركسي.

والسلطة الرمزية التي يمارسها المثقفون لا تعدو كونها مهنة ومصالحة، وهي ككل مهنة لها أصولها وقواعدها، ولها عدتها ورأس مالها، ومن ثم لها منتوجاتها وأسواقها، ولها منافعها واستثماراتها، فالكاهن والفقيه والمثقف كل واحد من هؤلاء يوظف رأس ماله الرمزي المتمثل في علمه وخبرته أو في منصبه ولقبه، أو في مقدرته الكلامية والخطابية يوظفه في ممارسته لمهنته التي تدر عليه منافع معنوية ومادية تتمثل في السلطات والخيرات أموالاً أو جاهاً أو نفوذاً⁽¹⁾.

(1) محمد بن صنيان، مرجع سابق، ص 124.

(1) علي حرب، أوهام النخبة أو نقد المثقف، المركز الثقافي العربي، بيروت، 2004، ط3، ص 57.

الرمز، الأداة المثلى لصناعة التغيير

لعل السؤال الذي يتبادر إلى الأذهان عند قراءة هذا العنوان هو هل التغيير صناعة بكل ما تعنيه كلمة صناعة من معنى؟ والإجابة على هذا السؤال دون شك هي بالإيجاب، نعم التغيير يصنع وترسم له أهداف وتوضع له خطط وبرامج واستراتيجيات...

إن التغيير طبيعة بشرية بل هو ناموس من النواميس الكونية، وسنة من سنن الله في خلقه، وإذا انعدمت أسباب التغيير فالزمن وحده كفيلاً بإحداث التغيير، حتى التضاريس والجبال التي هي من الجمادات تتغير عبر الزمن، وباعتبار الإنسان جزء من الطبيعة، فهو ليس بمنأى عن التغيير، فإذا لم يخطط للتغيير وفق ما يريد، فستغيره الظروف كما تريد، وقد ورد في الآية الكريمة "إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم"⁽²⁾.

والتغيير الذي تنشده مختلف الكيانات سواء كانت أفراداً أو مؤسسات أو حتى حكومات ودولاً هو التغيير نحو الأفضل، أي أن يكون حاضرها أفضل من ماضيها ومستقبلها أفضل من حاضرها، وإذا تحقق ذلك فإن هذا الكيان يسير نحو الأفضل.

والمثقف يعتبر من دعاة التغيير، فهو من أجل هذا الهدف يستخدم سلطة الكلام أو الكتابة، ويعمل في حقل الإنتاج الرمزي، أي ينتج أو يستخدم السلع الرمزية المتمثلة في العقائد والمعارف أو في النصوص والخطابات أو بسواها من المنتوجات الثقافية إنما يتصرف بوصفه يمثل الطليعة وينتمي إلى النخبة الممتازة أو الصفوة المختارة⁽¹⁾.

لا شك أن الانتلجنسياً أو النخب المثقفة تمتلك سلطة رمزية على المجتمع ومؤسساته من خلال الأفكار التنويرية والخلقة التي تنتجها، والتي من شأنها أن تصنع التغيير وأن تقود المجتمع نحو الرقي والتطور، وهذه المنتجات يعبر عنها عادة بالصناعة الثقافية التي تحمل في طياتها عنصر الابداع والتجديد والابتكار والذي يعد شرطاً أساسياً لصنع الفارق وتحقيق التفوق والتنافسية بين الأمم، فالصناعة الرمزية ورأس المال المعرفي هي القوة الحقيقية لصناعة التغيير، ولا توجد أمة من الأمم عبر التاريخ ازدرت علماءها ونخبها المثقفة واحتقرتهم وهمشتهم وتجاهلت أفكارهم وتوجيهاتهم إلا وكان التغيير هو الذي يصنعها كما يريد بدل أن تصنع هي التغيير كما تريد.

⁽²⁾ القرآن الكريم، سورة الرعد، الآية 11.

⁽¹⁾ علي حرب، مرجع سابق، ص 38.

فمفهوم الطليعة هو الصيغة الحديثة لمفاهيم قديمة كالخاصة والنخبة والصفوة، ويتوقف عمل هذا المفهوم على مقابله ونقيضه الذي هو مفهوم الجمهور أو الجماهير العامة، فالطليعة تمثل الذوات المستنيرة المريدة المتميزة باستقلاليتها عن السلطة وتحررها من القيود والتقاليد هي ذوات النخبة المثقفة التي تمثل ذروة الوعي بالواقع والإخلاص للحق والحقيقة، الأمر الذي يؤهلها لأن تفكر عن سواد الناس وتقرر عنهم وتخطط لهم، أو على الأقل يؤهلها لأن تنير الدرب أمامهم وتسهم في تشكيل وعيهم لكي يعوا مهمتهم التاريخية، ويمارسوا دورهم الفعال في أحداث التغيير المنشود، أو في الثورة على الأوضاع القائمة⁽¹⁾.

وإذا تتبعنا التاريخ الحضاري للأمم ورصدنا التغييرات الخلاقة والبناء التي حصلت وصولاً إلى الحضارة الراهنة، نجد أن المنظومة الرمزية كانت ولا تزال هي المحرك الأساسي لحدوث الطفرة الحضارية بشقيها المادي والمعنوي في أي أمة من الأمم، بل حتى التغييرات المدمرة التي عرفت البشرية عبر التاريخ كانت بسبب الأفكار الخاطئة وغير المدروسة من قبل النخب المثقفة أو الأفكار المتحيزة القائمة على الزبائنية التي شرعنت عمليات التغيير الخاطئة والمنافية أحياناً للأخلاق والمثل العليا والقوانين، بل والمضادة حتى للقيم الإنسانية، كما هو حال الحركة الإستعمارية بممارساتها الوحشية وأساليبها الهمجية والتي سوق لها بعض المثقفين الغربيين من مفكرين وفلاسفة وصحفيين... وقدموا لها المبررات، ومازال بعض المثقفين من الغرب وحتى من العرب إلى اليوم يعتبرون الإستعمار سلوكاً حضارياً وضرورة حتمية لتخليص الشعوب المتخلفة من الجهل وإخراجها من الظلمات إلى النور، وهو ما تجسد في قانون تمجيد الإستعمار الصادر في فرنسا في 23 فبراير 2005 والذي صادق عليه البرلمان الفرنسي المشكّل في غالبته من المثقفين الفرنسيين.

لا يلام المثقفون الفرنسيون على تمجيدهم للماضي الإستعماري لدولتهم المليء بالجرائم الثلاث التي لا تسقط بالتقادم وفق القانون الدولي وهي جرائم الحرب، وجرائم الإبادة الجماعية وجرائم ضد الإنسانية في حق الشعب الجزائري إذا كان بعض المستعمرين (بفتح الميم) أنفسهم يمجدون الإستعمار، ويعتبرون الثورة التحريرية المجيدة والإستقلال عن فرنسا خطأ تاريخياً على حد قول الراحل "عبد الحميد مهري"، فقد كتبت الصحفية "حدة حزام" - إذا اعتبرناها من المثقفين أصلاً - قائلة: "لولا الإستعمار الفرنسي لما كنا بشراً... كل ما يصلح الآن في البلاد من الحقبة الإستعمارية مباني، شوارع، سيارات... وجيل فرنسا المثقف، شكراً فرنسا"، وإذا كان هذا الخطاب يترجم فشل الدولة الوطنية المستقلة، فإنه يعكس ما يمكن أن نسميه بالقابلية الرمزية للإستعمار اقتباساً من فكرة المفكر "مالك بن نبي" (la colonibilité)، فلا عجب إذن أن يتقدم "مثقفونا" بالشكر الجزيل إلى فرنسا لأنهم يعلمون ظاهراً من الإستعمار وهم عن حقيقته هم غافلون.

(2) نفس المرجع، ص 50.

ولا يختلف حكم بعض المثقفين على الإستعمار عن حكمهم على ما يسمى بـ "الربيع العربي" الذي شهدته المنطقة العربية في هذا العقد الأخير، والذي يعتبره البعض استعماراً من نوع جديد، حيث ظهرت بعض الوجوه والأفلام والأصوات المحسوبة على النخب المثقفة، بعضها مزيف وبعضها الآخر انتهازي تنادي بهذا التغيير المدمر للأوطان وتبرره وتضفي عليه "الشرعية الرمزية" بعد أن وضع جزء من الجماهير العامة ثقته في هذه النخب الفكرية، والغريب في الأمر أن الكثير من هذه الأصوات المحسوبة على الانتلجنسيا العربية التي كانت تظهر على بلاطوهات التلفزيونات العربية وغير العربية كانت تعيش في بلاد الغرب ومعزولة عن واقع ويوميات المواطن العربي، ولم تعشألامه لا قبل ما يسمى بالربيع العربي ولا أثناءه ولا بعده.

تعريف الإتصال النخبوي Elitist communication:

هو عملية تفاعلية ديناميكية يتم من خلالها تبادل المعلومات والرموز بين طرفين، حيث يكون أحد هذين الطرفين على الأقل ينتمي إلى فئة النخبة أو الصفوة في المجتمع، وهم الذين يتميزون ويتفوقون على غيرهم في صفة واحدة على الأقل أهلتهم لتبوء مراكز قيادية في المجتمع في أحد المجالات القيادية سواء كانت سياسية أو عسكرية أو علمية أو رياضية أو اجتماعية...، محلياً، وطنياً، إقليمياً أو دولياً، ويعتبر الإتصال النخبوي أحد أهم السلوكيات الممارسة من قبل النخب الفاعلة، وهو يتميز عن غيره من أنواع الإتصال الأخرى التي تتم بين العوام من حيث الشكل والمضمون.

مفهوم الإتصال الانتلجنسي:

هو جزء من الإتصال النخبوي تمارسه القيادات الفكرية والنخب المثقفة التي تحمل فكرياً تنويرياً تثويرياً طلائعياً، وهو يشير إلى العلاقات والروابط التي تنشأ بين المفكر أو المثقف وغيره من الأفراد والمؤسسات، بهدف الحصول على معلومات تمكن المثقف أو المفكر من معرفة الواقع ومعاينته عن كثب وتشخيصه بدقة، ثم نشر افكاره الخلاقة والتنويرية، ومشاركته لإنتاجه المعرفي والرمزي الإبداعي مع العامة وأصحاب القرار باستخدام مختلف أساليب التواصل، سواء وجهاً لوجه، أو عبر وسائل الإعلام والإتصال الكلاسيكية، أو باستخدام التكنولوجيات الجديدة للإعلام والإتصال وفي مقدمتها شبكات التواصل الاجتماعي، ويكون مكتوباً أو شفهيّاً أو سمعياً بصرياً (متعدد الوسائط) ضمن ما يعرف بالخطاب النخبوي.

الإتصال الانتلجنسي بين سلطة المثقف ومثقف السلطة:

يعد النشاط الإتصالي النخبوي أحد أهم السلوكيات التي يقاس بها مدى نجاح النخب، وأحد أبرز المؤشرات التي تدل على فعالية الصفوة المثقفة وديناميتها وحيويتها، واستمراريتها في حراكها النخبوي، ويمكن القول أن السلطة الرابعة المتمثلة في وسائل الإعلام بما في ذلك التكنولوجيات الجديدة للإعلام والإتصال هي إحدى أهم الوسائل - إن لم تكن أهمها على

الإطلاق- التي أعطت للمثقف سلطة ومكانة في المجتمعات المعاصرة، بل يمكن القول أنها - أي وسائل الإعلام- هي التي صنعت منه مثقفا وجعلته نجوبيا ولو لم يكن في واقع الأمر كذلك، بمعنى أن المثقف الذي لا تظهر صورته بشكل متكرر في وسائل الإعلام، ولا يتداول اسمه فيها بصفته مثقفا أو خبيرا يفقد مكانته وسلطته، فقد أثبتت الدراسات الإعلامية أن وسائل الإعلام تمنح المكانة والشهرة، وبالتالي فإن سلطة المثقف صارت مستمدة من السلطة الرابعة رغم أن كلا السلطتين تنتجان الخطاب وتصنعان الرمز والمعنى، فمن تتجاهله وسائل الإعلام أو يتجاهلها هو يبقى مثقفا هامشيا يطويه النسيان والتهميش، ويفقد سلطته الرمزية إلا إذا كان إنتاجه الفكري والمعرفي نوعيا وخالقا فإنه يفرض نفسه على المشهد الاعلامي، ويمارس هو سلطته الرمزية على السلطة الرابعة، بل إن الفضاء الاعلامي في حد ذاته هو أحد الفضاءات الخصبة ليمارس المثقف اتصاله الانتلجنسي.

إن مثقف السلطة هو الذي يقف إلى جانب السلطة الحاكمة في جميع مواقفها وفي كل ما تتخذه من قرارات ويلتمس لها الأعداء في حالات الخطأ والإخفاق - هذا إن اعترف بوجود خطأ أو إخفاق أصلا- ويقدم من أجل ذلك المبررات والمسوغات، أي أنه يشرعن سلوكات السلطة السياسية، فكل ما تراه السلطة حسنا يراه هو كذلك والعكس صحيح، فإذا كان في الظاهر يبدو وكأنه يدافع عن ممارسات السلطة فإنه في واقع الأمر يدافع عن امتيازاته ومصالحه المادية والمعنوية التي يستمدّها من عطاءات ومنح السلطة ورضاها عنه وعن خطابه الذي يتطابق مع خطابها ضمن علاقة زبائنية.

ومن حيث السلوك الإتصالي فإننا نجد هذا النوع من المثقفين حاضرا بقوة في وسائل الإعلام العمومية لأن خطابه يتوافق مع السياسة الإعلامية لوسائل الإعلام الحكومية، ويتميز خطابه بالاصطفائية والحذر، فهو ينتقي الكلمات بحذر شديد خوفا من إغضاب السلطة السياسية، أو بالأحرى خوفا من انقطاع المدد الذي كان يستفيد منه جراء مدحه لممارسات السلطة الحاكمة، وإضافته للشرعية الرمزية على سلوكاتها، فهو في هذه الحالة يتم استغلاله من قبل البلاط لمباركة قراراته وصبغها بالشرعية العلمية والفكرية.

أزمة اللغة في الخطاب الانتلجنسي

لا شك أن كل لغة تحمل في طياتها ثقافة خاصة بها، فالتعددية اللغوية في أي مجتمع تعكس تعددية ثقافية لديه، تشكل هويات مختلفة يعبر عنها بالتنوع الهوياتي، والذي بدوره ينتج ثراء ثقافيا وفكريا وحضاريا، غير أن بعض المجتمعات تعاني من شرخ لغوي أو بالأحرى من أزمة لغوية عميقة مردها إلى أسباب مختلفة، مما أدى إلى وجود صراع لغوي وثقافي وحضاري في هذه المجتمعات كما هو حال المجتمع الجزائري، حيث تتعدد اللهجات المحلية التي تعتبر مزيجا من عدة لغات العربية، الأمازيغية، الفرنسية، الإسبانية، التركية... الخ.

فاللغة العربية الفصحى لا تستعمل إلا في فضاءات محدودة وهي المؤسسات التعليمية، وسائل الإعلام والمسجد، وحتى في هذه الفضاءات نجد اللسان الدارج يزاحم اللغة الفصيحة - إن لم يبلغها أصلا- ففي قطاع التعليم مثلا ظهرت دعوات مؤخرا تطالب بإحلال اللغة العامية محل اللغة الفصيحة في التدريس، وفي وسائل الإعلام ينحصر استعمال اللغة العربية الفصيحة في قراءة الأخبار، أما ما سوى ذلك من البرامج الاعلامية فجله بالعامية، وفي مؤسسة المسجد لا يختلف الأمر كثيرا، حيث يقتصر استخدام اللغة العربية الفصحى على خطبة الجمعة في حين ينتج باقي الخطاب المسجدي باللهجة العامية باستثناء بعض العبارات الفصيحة مثل الآيات القرآنية والاحاديث النبوية.

هذا دون أن ننسى سيطرة اللغة الفرنسية على المشهد اللغوي في الجزائر، الرسمي منه وغير الرسمي، فاللغة الفرنسية في الجزائر هي لغة رسمية بطريقة غير رسمية، لدى العوام فضلا عن النخب المثقفة، فالإنتاج الرمزي ينتج في أغلبه باللغة الفرنسية ثم يترجم إلى اللغة العربية وليس العكس، بمعنى أن اللسان الفرنسي هو الأصل، سواء في الخطاب السياسي أو الإعلامي أو الأكاديمي... مما شكل عقدة لغوية لدى بعض المثقفين الجزائريين في اتصاها الانتلجنسي مع الجماهير، خاصة الشباب منهم الذين لا يتقنون بالضرورة اللغة الفرنسية، فهناك انطباع سائد في المجتمع الجزائري أن كل من يتحدث باللغة الفرنسية هو بالضرورة مثقف ومتعلم والعكس صحيح، كما أن كثيرا من المتفرنسين يجدون صعوبات بالغة في التواصل باللغة العربية (وزيرة التربية الوطنية مثلا)، مما شكل فجوة بين الأجيال (جيل من كبار السن يتقن الفرنسية ولا يتحكم في العربية مقابل جيل من الشباب يستعمل اللغة العربية ولا يتحكم بالضرورة في اللغة الفرنسية)، مما خلقهوه لغوية لها مستويان:

- هوة لغوية بين المثقفين في حد ذاتهم (بين الانتلجنسيا الناطقة باللغة الفرنسية وتلك الناطقة بالعربية، وحتى الناطقة بالأمازيغية خاصة بعد ترسيمها ودسترتها).
- هوة لغوية بين النخب المثقفة باختلاف مجالات نشاطها(السياسية، الاعلامية، الأكاديمية، الدينية...) من جهة، والجماهير العامة من جهة أخرى.

دون أن ننسى بداية تحول الانتلجنسيا الجزائرية نحو استعمال اللغة الإنجليزية التي فرضت نفسها على النخب المثقفة باعتبارها لغة العصر والعولمة والعلم والتكنولوجيا والسفر والسياحة... بل ولغة البراغماتية، باختصار لأنها لغة اللغات، ولكن مازال استعمالها في الجزائر ضعيفا ومحتشما بسبب غياب الإرادة السياسية في توطئها.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن اللغة التي تستخدمها النخب المثقفة في خطابها الانتلجنسي تتميز غالبا بالتعقيد والغموض بحيث يصعب فهمها من قبل العامة، أو الفئات الاجتماعية غير المتخصصة، ومعلوم من الناحية الأكاديمية أن

كل تخصص له لغته الخاصة به التي تتضمن جملة من المصطلحات والمفاهيم التي لا يفهمها إلا أهل الإختصاص، فطلبة اللغات والترجمة يدرسون مادة تسمى "لغة التخصص"، لما لهذه اللغة من خصوصية تميزها عن غيرها من اللغات الأخرى، مما يزيد من تعميق الفجوة اللغوية بين النخب المثقفة والعوام في عملية الإتصال الانتلجنسي.

فالعامي عندما يسمع المثقف أو المفكر في شؤون السياسة يستعمل عبارة الشرعية السياسية أو الحوكمة السياسية مثلا لا يفهم معناها، كما أنه يصعب عليه معرفة المقصود ب "الغاز الصخري" عندما يسمع متخصصا يتحدث عنه.

كما يعاب على بعض المثقفين والمفكرين استخدامهم للغة متقنرة في خطاباتهم، بل ويتعمدون أحيانا التعقيد اللغوي باستعمال مفردات ومصطلحات غامضة للمظهر في صورة المثقف الماهر المتمكن والمتميز، خاصة أثناء تواصلهم عبر وسائل الإعلام، فالتكلف اللغوي يزيد من غموض الخطاب النخبوي وبالتالي النفور منه، لأنه يجعله غير واضح حتى للمتخصصين أحيانا فكيف لغير المتخصصين والعوام.

تكنولوجيات الإعلام والإتصال ونهاية سلطة الانتلجنسا

إذا كانت السلطة السياسية الحاكمة في الأنظمة الديمقراطية تستمد قوتها ونفوذها من الشرعية السياسية المتمثلة في الأغلبية الناجبة، وإذا كانت النخب المالية والإقتصادية تركز في ممارسة نفوذها على قوة رأس المال، فإن النخب المثقفة تعتمد بالدرجة الأولى في ممارسة سلطتها على تميزها المعرفي وتفوقها العلمي والثقافي، ولعلنا لا نغالي إذا قلنا أن جميع السلطات والنخب الأخرى سواء كانت سياسية أو عسكرية أو اجتماعية... الخ تجدد نفسها في حاجة ماسة إلى النخب الفكرية والمعرفية لتنويرها وتبصيرها من خلال تزويدها بالحكمة والعلم ورأس المال المعرفي.

غير أن الطفرة التكنولوجية المتسارعة التي شهدتها وتشهدها تكنولوجيات المعلومات والإتصال أدت إلى خلخلة جملة من المفاهيم التي تغير مدلولها، وانتقل من معناه التقليدي إلى معان جديدة فرضتها التطورات التكنولوجية والممارسات المرتبطة بها، ولعل مفهوم النخبة هو أحد المفاهيم التي فرضت على الباحثين والمتخصصين المهتمين بدراسته إعادة النظر فيه تماشيا مع التطورات والتغيرات التي يعرفها مفهوم النخبة من حيث التنظير وكذا من حيث الممارسة نتيجة عدة عوامل لعل التكنولوجيا تأتي في مقدمتها.

لقد أدت تكنولوجيات الإعلام والإتصال التي هي أدوات ديمقراطية بطبيعتها إلى ديمقطة المعلومات والمعرفة، وساهمت بشكل غير مسبوق في نشر مختلف العلوم والمعارف والمعلومات على الخط، مما كرس نسبيا مفهوم الحق في المعرفة دون

حواجز، وحرية الوصول إلى المعلومات ونشرها بما في ذلك المعلومات العلمية والتثقيفية، وأصبح بإمكان أي شخص الحصول على المعلومات التي يريدها بشكل سهل وسريع وبتكلفة زهيدة، مما أدى إلى تقلص الفجوة الرمزية والمعرفية بين النخب والعوام، وبالتالي انحصار سلطة الانتلجنسيا، نتيجة انهيار تفوقها العلمي والفكري الذي كان يميز النخب المثقفة عن الجماهير العامة، ففي مجال الفتوى مثلاً سقطت السلطة الرمزية التقليدية للإمام أو الشيخ أو المفتي، حيث صار بإمكان المستفتي أن يجد معلومات مفصلة عن موضوع فتواه على الانترنت، وفي المجال الطبي ظهر ما يسمى بالعلاج الذاتي حيث يشخص المريض حالته الصحية أحياناً من خلال تصفحه للمواقع الالكترونية المتخصصة في المجال الطبي، وحتى شراء الأدوية دون استشارة الطبيب رغم ما يحمله ذلك من مخاطر...

لقد أمضت الانترنت وشبكات التواصل الإجتماعي على شهادة الوفاة للنخب المثقفة التقليدية، فعندما انتهى "صمويل كولت" من صناعة أول مسدس قال "الآن يتساوى الشجاع والجبان"، وعند انتهاء "مارك زيكنبرغ" من تصميم الفايبروبوك قال "الآن يتساوى العالم والجاهل"، إنها إذن بداية النهاية لسلطة الانتلجنسيا الكلاسيكية التي حطمتها التكنولوجيات الجديدة للمعلومات والاتصال، فاسحة المجال أمام نخب جديدة للبروز في العالم الافتراضي.

الانتلجنسيا الالكترونية أو النخب الجديدة

يشكل الفضاء الافتراضي البديل الأمثل للنخب المثقفة المجهولة أو تلك المغضوب عليها من قبل السلطة الحاكمة، كما يعتبر البيئة الخصبة لأرباب الأفكار الخلاقة الذين لم تتح لهم الفرصة للبروز في الفضاءات الاجتماعية الكلاسيكية وفي وسائل الإعلام التقليدية - خاصة الحكومية منها- حيث تعتبر الانترنت وفي مقدمتها شبكات التواصل الإجتماعي الأداة المثالية التي تتواصل من خلالها النخب الرمزية الجديدة مع الجماهير، وتنشر عبرها أفكارها واقتراحاتها بكل حرية مما يؤدي إلى ثراء الخطاب النخبوي، ويضع حدا لاحتكار النخب الفكرية التقليدية للمشهد الاعلامي الكلاسيكي، كما يعتبر الفضاء الالكتروني مساحة حرة وديمقراطية للاتصال بالانتلجنسي وفرصة ذهبية للنخب الفكرية والثقافية الشابة التي بدأت تشق طريقها في حقل الإنتاج الرمزي والمعرفي وممارسة الإتصال القيادي عبر الوسائط الإلكترونية المختلفة، والمشاركة في الشأن العام خدمة للمصلحة العامة.

وسائل الإعلام والنخبة المزيفة

هناك ظاهرة أصبحت تعرفها وسائل الإعلام خاصة في الآونة الأخيرة وهي احتكار بعض الوجوه للفضاء الإعلامي بمختلف أنواعه المكتوب والمسموع والسمعي البصري، حيث احتلوا شاشات القنوات الفضائية، إلى درجة أنك تجد أحدهم يحلل ويشرح موضوعاً ما في إحدى القنوات، وما أن تغير القناة حتى تتفاجأ بوجوده فيها أيضاً، وأحياناً بشكل

متزامن أي في نفس اللحظة إذا كان أحد البرامج مسجلا أو معادا، بعض هذه الوجوه نصّب نفسه ضمن النخبة الفكرية أو قدمته وسائل الإعلام بهذه الصفة، بل أصبحت تطلق على كل من يجلس في بلاطوها تها إسم "الخبير"، ومعروف في اللغة أن كلمة "خبير" تعني العليم بدقائق الأمور، وإذا استمعت إلى خطاب هذه النخب المزيفة والمزورة وهي تحلل أو تشرح حدثا من الأحداث أو فكرة من الأفكار، تكتشف ضحالة تفكيرها وضعف مستواها مبني ومعنى، فهي غير ملمة بالخطوط العريضة للموضوع الذي تحلله، فضلا علأن تكون عليمه بدقائقه، فكيف تسمح هذه النخب "الكرتونية" لنفسها أن تتسمى بـ "الخبير"؟ وكيف تجيز وسائل الإعلام لنفسها أن تصفها بهذه الصفة؟

ليس كل من تقدمه وسائل الإعلام على أنه خبير أو من النخبة الفكرية هو فعلا كذلك، وفي المقابل ليس كل مثقف لم يظهر في وسائل الإعلام لا يملك صفة النخبوية.

إن هذا النوع من النخب المزورة التي وجدت نفسها نخبة بالصدفة هو صناعة اعلامية بامتياز، استغل الفضاء الاعلامي للبروز وكسب الشهرة وتحقيق بعض المكاسب والمنافع والامتيازات المادية والمعنوية، يحدث كل ذلك على حساب النخب المثقفة الحقيقية التي انزلت وآثرت الصمت بعيدا عن الصخب الإعلامي، أو تم إبعادها وتهميشها بسبب خطابها المزجج الذي لا يتماشى مع السياسة الإعلامية للوسيلة الإعلامية.

وبالنسبة للعالم الافتراضي المفتوح الذي ينشر فيه من يشاء ما يشاء ضمن الفضاء العمومي، لم يعد الكلام والنقاش حول القضايا العامة حكرا على النخب المثقفة، بل اتسع مجاله ليشمل حتى أولئك الذين لهم مستوى ثقافي وتعليمي محدود، وفي هذا الصدد يقول المفكر والفيلسوف الإيطالي "امبرتو ايكو" قولته الشهيرة: "إن أدوات مثل تويتر وفيسبوك تمنح حق الكلام لفيالق من الحمقى، ممن كانوا يتكلمون في البارات فقط بعد تناول كأس من النبيذ، دون أن يتسببوا بأي ضرر للمجتمع، وكان يتم إسكاتهم فورا، أما الآن فلهم الحق في الكلام مثلهم مثل من يحمل جائزة نوبل، إنه غزو البلهاء".

أنماط الاتصال الانتلجنسي

1- إتصال المثقف بخالقه:

ما قيمة الثقافة والفكر والمعرفة إذا كانت سببا في أن يقطع المثقف اتصاله بخالقه؟ للأسف هذا هو حال بعض المثقفين العرب الذين يزعمون بأنهم من دعاة الحداثة والمعاصرة، وأن سبب تخلف الشعوب مرده إلى الأفكار البالية المستمدة من الفلسفة اللاهوتية، وأن الدين هو أفيون الشعوب بما في ذلك الدين الإسلامي، وأنه إذا أرادت الشعوب الغارقة في التخلف والرجعية أن تتطور عليها أن تقطع صلتها بالأديان وبالديان، فالدين حسب زعمهم معاد للحداثة وقاتل للإبداع، وهو أحد الأسباب المثبطة والمعرلة والكابحة للأمم والشعوب في سعيها نحو التحديث والتطور، فهم ينظرون إلى

الدين وتعاليمه نظرة ازدراء وسخرية، وقد أثبتت بعض الدراسات التي تناولت العلاقة بين المستوى التعليمي والدين أنه كلما ارتفع المستوى التعليمي ازداد الإنسان تحمرا من الأديان والعكس صحيح، ولكن يبقى هذا حال بعض المثقفين الذين يمتلكون ثقافة سطحية ومعرفة هزيلة جعلتهم من دعاة الإلحاد واللاادينية وقطع أي اتصال بالسماء، أو على الأقل من دعاة العلمانية، وفي هذا الصدد يقول "فيرنر هاينزبيرغ" وهو رياضي وفيزيائي الماني وأحد الحائزين على جائزة نوبل سنة 1932: "الجرعة الأولى من العلم قد تقودك إلى الإلحاد، ولكن في قاع ذلك الكأس ستجد الله ينتظرك".

إنأرقى أنواع الاتصال على الإطلاق هو أن يتصل الإنسان بخالقه، وأرقى المعارف على الإطلاق معرفة الله تعالى، فالمفترض إذن أن تكون النخب الفكرية أكثر معرفة لله وبالتالي أكثر اتصالا به وليس العكس.

2- إتصال المثقف بذاته:

يعرف علماء الإتصال الذاتي بأنه محاورة الإنسان لنفسه ومخاطبتها بهدف معرفتها ومحاسبتها ومساءلتها، وهو ما يعرف في علم النفس بمنهج الإستبطان "اعرف نفسك بنفسك"، والمثقف قبل تواصله مع الآخرين يحتاج إلى الإختلاء بنفسه من أجل محاورتها ومساءلتها بعيدا عن المؤثرات الخارجية وأفكار الآخرين حتى يتمكن من التفكير بشكل سليم بناء على قناعاته الشخصية، وفي هذا الصدد وردت الآية الكريمة "قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا"⁽¹⁾، ولا يتحقق هذا النوع من الإتصال إلا إذا انعزل المثقف عن الآخرين وتأثيراتهم وأفكارهم، فإذا أراد المثقف أن يتصل بذاته عليه أولا أن يقطع اتصاله بالآخرين مؤقتا من فترة لأخرى.

3- إتصال المثقف بأصحاب القرار

لا يمكن للحراك النخبوي أن يكون فعالا إلا إذا كان اتصال الانتلجنسيا بصناع القرار مكثفا ضمن الفضاء العمومي، وأن يسخر فكره للعقل الجمعي أو كما سماه "هابرماس" بالعقل العمومي، من أجل تقديم النصح والمشورة وإبداء الرأي إزاء القضايا المتعلقة بالشأن العام، وهذا النوع من الإتصال الذي تمارسه النخب المثقفة والذي يستهدف الصالح العام يدخل ضمن ما يسميه الباحثون بـ "الإتصال العمومي"، وينبغي أن لا يكون هدف المثقف من اتصاله بأصحاب القرار على كل المستويات (السياسية، الإدارية، المالية، الأكاديمية...) تحقيق مصالحه الشخصية، سواء كان ذلك على المستوى المحلي (رئيس البلدية، رئيس الدائرة، الوالي)، أو على المستوى الوطني (الوزراء، نواب البرلمان، رئيس الجمهورية)، أو على المستوى الإقليمي مثل صناع القرار في الهيئات الإقليمية (جامعة الدول العربية، الإتحاد الإفريقي، منظمة التعاون الإسلامي...)، أو حتى على المستوى الدولي مثل الهيئات الأممية والمنظمات الدولية.

(1) القرآن الكريم، سورة سبأ، الآية 46.

3- الإتصال البيئي داخل النخب المثقفة:

تستمد أي جماعة قوتها من تماسك أعضائها وتواصلهم المستمر مع بعض، ولعل أهم الأسباب التي أدت إلى ضعف النخب المثقفة وهامشيتها وعدم أداء دورها الطلائعي كما يجب في صناعة التغيير نحو الأفضل هو تفكك عناصرها وتباعد أعضائها وانقطاعهم عن بعضهم البعض، فالكثير من المثقفين يجهلون بعضهم البعض فضلا عن التواصل فيما بينهم، لأنهم معزولون عن بعضهم، ولا يوجد اتصال بينهم، وإن وجد فهو ضعيف، غير أن تكنولوجيات الإعلام والإتصال قد أتاحت اليوم فرصا ثمينة أمام النخب المثقفة تضمن لها ديمومة الإتصال من أجل تبادل الأفكار والآراء ووجهات النظر حول مختلف القضايا والأحداث سواء تعلق الأمر بالنخب المحلية أو الوطنية أو الاقليمية أو حتى الدولية، حيث فتحت هذه التكنولوجيات الجديدة آفاقا واسعة للتبادل الثقافي والحضاري بين النخب المثقفة على مستوى العالم، أو ما يعرف بالثقاف ضمن ما يسمى حوار الثقافات والحضارات، ومن شأن هذا الإنفتاح على الثقافات العالمية أن يوسع ويشري الحراك الثقافي للأنتلجنسيا، ويحقق الإبداع الفكري والرمزي، وأن يساهم في إنتاج المعرفة الخلاقة.

4- إتصال الانتلجنسيا بالعامه

يجب على الانتلجنسيا أن تكون أكثر اهتماما من غيرها بالقضايا والأحداث المتصلة بالشأن العام، وأن تكون على دراية والمام بحياة العامة وأوضاعها وتطلعاتها ومشاكلها وآمالها، وفي هذا الإطار يستهدف اتصال الانتلجنسيا بالعامه هدفين أساسيين:

- الهدف الاول هو الإتصال بالعامه من أجل صناعة الرمز من خلال معاينة وضع الجماهير ومعرفة واقعها على حقيقته، بعيدا عن الإغراق في التنظير والفكر المجرد والطوباوي أحيانا، فالمثقف أو المفكر لا يعيش في جزيرة معزولة عن محيطها، فهو يحيا وسط مجتمع، يهتم بشؤونه، ويسعى لإصلاح أوضاعه وتغييرها نحو الأفضل، بدءا من الحي الذي يقطن فيه، إلى المدينة التي تحتضنه، إلى الوطن الذي يعيش فيه، إلى الأمة التي يشعر بانتمائه إليها، إلى العالم بأسره الذي يعنى بقضايا الكونية مثل الإحتباس الحراري وقضايا البيئة.
- الهدف الثاني هو الإتصال بالعامه من أجل نشر الرمز، فبعد التمكن من معاينة وضع العوام ودراسته بطريقة علمية وموضوعية ومعرفة مكان الخلل ومواطن القصور والاعوجاج، يقدم أفكاره الخلاقة على شكل اقتراحات ومشورات لتنوير الرأي العام وتقويم الإعوجاج وتصحيح الإختلالات، واقتراح الحلول التي من شأنها أن تحسّن حياة العامة وتخفف من معاناتها اليومية.

أشكال الإتصال الانتلجنسي: يأخذ الإتصال الانتلجنسيا شكالا متعددة نذكر منها:

1- **الصمت:** يعتبر الصمت شكلا من أشكال الإتصال الذي تستخدمه النخب المثقفة، وهو ما يسمى بالإتصال الصامت، ويمكن لصمت المثقف أن يكون مؤقتا لأسباب ذاتية أو لظروف موضوعية، كما يمكن أن يكون صمنا مزمنا يلزمه المثقف والمفكر طوال حياته ليس لعجز عن التعبير والتواصل، أو لعدم وضوح الرؤية لديه، وإنما هو سلوكياتي يعبر عن حالة نفسية يشعر بها المثقف نابعة إما من سخطه على المجتمع الذي لا يسمع لأفكاره أو لا يريد أن يسمعها، أو بسبب الخوف إما من المجتمع أن ينبذه بسبب جرأته الفكرية والرمزية، أو خوفه من أن يطاله عقاب السلطة بسبب مواقفه وآرائه المزعجة لها، وقد يؤثر المثقف الصمت ويفضل العزلة بسبب تميز رأيه عن بقية الآراء وخروجه عن المألوف وتمرده على عادات المجتمع وتقاليده أو يأسه من صناعة التغيير.

فحيال وضعية الإستلاب التي تسلب المرء إرادته وحرية أو هويته وثقافته، يجد المثقف نفسه أمام خيارين: إما أن يسعى بفكره ومواقفه إلى تغيير واقع الحال كما يفعل عادة الدعاة والمنخرطون في مشاريع الإصلاح والتغيير، وإما أن يختار العزلة لكي يمارس هامشيته وغربته إزاء ما يحدث، معتبرا أن لا مجال في هذا العالم لترجمة مثله وتحقيق تطلعاته⁽¹⁾.

2- **الإتصال المباشر وجها لوجه:** من خلال اللقاءات المباشرة عبر المحاضرات والندوات والمليقات الأكاديمية وغير الأكاديمية في مختلف الفضاءات العامة وحتى الخاصة.

3- **الإتصال عبر وسائل الإعلام المختلفة:** من خلال كتابة المقالات في الصحافة المكتوبة والمجلات المتخصصة، وكذا عبر البرامج الإذاعية والتلفزيونية التي تتناول بالتحليل والنقاش القضايا العامة المختلفة محليا، وطنيا، إقليميا ودوليا.

4- **عبر الانترنت:** يعتبر الإعلام البديل فضاء خصبا وفعالا يتواصل من خلاله المثقف مع غيره من مختلف الأوساط الإجتماعية والثقافية والأكاديمية...، سواء عبر البريد الإلكتروني، أو من خلال إنشاء موقع إلكتروني شخصي تفاعلي، أو عبر شبكات التواصل الإجتماعي مثل فايسبوك وتويتروانستغرام... وغيرها.

5- **تأليف الكتب:** يعتبر تأليف الكتب وسيلة هامة للتواصل بين المثقفين والجمهور العام، وكذا فيما بين المثقفين من خلال نقد بعضهم البعض والرد على الأفكار التي لا يتفقون معها، مما يساهم في إثراء المكتبة، كما يعد التأليف أحد الوسائل الهامة للتبادل الثقافي بين الشعوب والحضارات من خلال عملية الترجمة، وهو فضلا على ذلك أداة للتواصل بين الأجيال وحفظ الموروث الثقافي، غير أنه يعاب على بعض المثقفين عدم اهتمامهم بالكتابة بسبب غياب ثقافة التأليف لديهم رغم امتلاكهم لرصيد ثقافي هام، ورغم حيازتهم لأفكار إبداعية خلقة، كما يعاب على بعضهم الآخر تأليفهم لكتب ذات طابع تجاري تسويقي محض، أو قد يكون الهدف منها الحصول على ترقية أكاديمية.

(1) علي حرب، مرجع سابق، ص 73.

خاتمة

كانت هذه مجرد محاولة أولية للإقتراب من مفهوم الإتصال الانتلجنسي ووسائله ورسائله في عصر الرقمنة، باعتباره أحد أنواع الإتصال القيادي أو النخبوي، وإذ نقر بالقصور والسطحية التي تعتري هذه الورقة البحثية لإدراكنا بأن تشريح واقع الإتصال الانتلجنسي والبحث فيه أكبر من أن يجمع في صفحات معدودات، فإن الأمل يحدونا للتفصيل في هذا الموضوع بشكل أوسع في مؤلف خاص، وهي في نفس الوقت دعوة للباحثين المهتمين للإستفاضة والتعمق أكثر في هذا الموضوع الهام المتعدد المقاربات والتخصصات والرهانات.

المصادر والمراجع:

أولاً: القرآن الكريم

ثانياً: الكتب

- 1- بوتومور، تر: مُجَّد الجوهري وآخرين، الصفوة والمجتمع، دراسة في علم الاجتماع السياسي، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، 1988.
- 2- ثروت مكي، النخبة السياسية والتغيير الإجتماعي، عالم الكتب، القاهرة، ط1، 2005.
- 3- علي حرب، أوهام النخبة أو نقد المثقف، المركز الثقافي العربي، بيروت، 2004، ط3.
- 4- مُجَّد بن صنيتان، النخب السعودية، دراسة في التحولات والإخفاقات، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2005، ط2.

ثالثاً: المعاجم والقواميس

-علي بن هادية وآخرون، القاموس الجديد للطلاب، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1991، ط7.

رابعاً: الرسائل الجامعية

- أسامة معقاني، النخبة الحاكمة ومسار التحول الديمقراطي، دراسة حالة تونس (1687-2010)، مذكرة ماجستير في العلوم السياسية والعلاقات الدولية، جامعة الجزائر، 2011.